دولة التلاوة المصرية

مدخل تعريفي



الدكتور حسام الدين طاهر عبد المنعم
دكتوراه في الآداب - جامعة الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه

كان لمصر -ولا يزال- إسهام عظيم في التاريخ والعلم والثقافة الإسلامية، فمنذ الفتح الإسلامي لها في زمن خلافة الفاروق عمر وهي ذات أثر واضح في ملامح الدولة الإسلامية وحضارتها الناشئة، وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف رحمه الله: "لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثانى للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة فى الفكر الإسلامى العربى، وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما يُنمّيها، وغلب عليها حينئذ التلقى والتلمذة، فهى تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوىّ والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربى الإسلامى، وتسيغ ذلك كله وتتمثله حتى إذا توسطت القرن الثانى للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه. ولعل

من الطريف حقا أنها أخذت تتزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا، فإذا هى تعدّهما لقراءة ورش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز. وليس ذلك فحسب، فإنها هى التى كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ....، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصرى إلى وضع أسس التصوف، .. ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعى وحملت عنه مذهبه ونشرته فى بلدان العالم الإسلامى، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوعا وانتشارا".

وقد تميزت مصر بطريقة معروفة في تلاوة القرآن الكريم، اشتهر بها أعلام من القراء وأصبح لها تأثير وذيوع في أوساط العالم الإسلامي، وهي الطريقة التي عرفناها من كبار القراء في أوائل القرن العشرين كالشيخ علي محمود والشيخ محمد رفعت والشيخ صديق المنشاوي ومن عاصرهم من القراء الذين اشتهروا بعد ظهور الإذاعة بالرعيل الأول.

هذه الطريقة التي لا تزال ممتدة إلى يومنا هذا في تلاوات القراء المصريين تتميز بتحقيق أحكام التلاوة والتأني فيها والقراءة على مهل في جمل يتخللها سكوت يتيح للقارئ والمستمع كليهما مساحة أوسع من التدبر والتفكر في معاني الآيات والتأمل فيها، ومن ثم فهي تستغرق وقتا طويلا

لقراءة مقدار ليس بالطويل من آيات القرآن، فالربع من أرباع المصحف تستغرق تلاوته وفق الطريقة المصرية حوالي نصف الساعة.

وقد اشتهرت هذه الطريقة بـ(التجويد) أو التلاوة المجودة، تمييزا لها عن الطريقة الشائعة في أنحاء العالم الإسلامي والتي اشتهرت بـ(الترتيل) أو التلاوة المرتلة، والتجويد والترتيل في هذا الاصطلاح لا يقصد بها ما يتعارف عليه علماء القرآن، وإنما المقصود بها التمييز في طريقتين في تلاوة القرآن، تتميز إحداهما عن الأخرى بطول المدة وتمهل القراءة وإطالة السكوت، فكأن أحكام التجويد -بالمفهوم الاصطلاحي- تكون أكثر وضوحا وأتم ضبطا فيها عن الطريقة الأخرى (المرتلة)، وهذه الطريقة المجودة هي من خصائص مصر في تلاوة القرآن الكريم، إذ لم نجد لها مثيلا في طرائق القراء في أنحاء العالم الإسلامي، ومن تتبع أعلام القراء في البلاد الإسلامية لا يكاد يجد من يقرأ بهذه الطريقة سوى قراء مصر، وقد أسسوا بذلك دولة للتلاوة القرآنية ذات طابع خاص وأثر كبير على جمهور عريض من المسلمين في أنحاء العالم.

البدايات الأولى

كان ظهور الإذاعات وآلات التسجيل أوائل القرن العشرين علامة فاصلة في تاريخ دولة التلاوة المصرية، فقد أتاحت هذه العوامل التقنية التعرف على خصائص الطريقة المصرية في تلاوة القرآن لهذه الفترة، والملاحظة المتبادرة من الاستماع إلى قراء مصر فيها أنهم كانوا على درجة عالية من التمكن والإبداع والإجادة، وهي صفات تدل قطعا على أن جذور هذه الطريقة تمتد في بعدها الزمني إلى فترات سابقة بعيدة لا يمكن أن تكون قصيرة أو قريبة من الزمن الذي احتفظت لنا فيه تلك التقنيات بملامح دولة التلاوة فيها.

ومن ثم فمنطق العقل يرفض ما يشاع أن الشيخ أحمد ندا -وهو من طبقة شيوخ الشيخ محمد رفعت- هو أول من أرسى معالم الطريقة المصرية في تلاوة القرآن، أو أنه كان صاحب الفضل الأول في تحول قراءة القرآن من مهنة من لا مهنة له إلى فن له أصوله وضوابطه، وإنما الأقرب للقبول هو القول بأن الشيخ أحمد ندا كان صاحب أثر بارز في رسم الملامح النهائية للطريقة المصرية التي شاعت وبرع فيها أعلام القرآن من بعده.

وإلى جانب الشيخ أحمد ندا تذكر أسماء لامعة في هذا الصدد، كالشيخ منصور بدار، والشيخ صديق تايب المنشاوي -وهو المنشاوي الكبير-، وإلى هؤلاء الثلاثة أرجع أحد الباحثين في تاريخ دولة التلاوة أصول المدارس المصرية في تلاوة القرآن الكريم.

فقد ظهر أثر الشيخ ندا في تلميذه الشيخ محمد رفعت، وظهر أثر الشيخ بدار في تلميذه الشيخ مصطفى إسماعيل، وظهر أثر الشيخ المنشاوي الكبير في تلميذه وولده الشيخ محمد صديق المنشاوي، ويمكننا أن نعمق هذا الأثر في ثلاثة اتجاهات بارزة في دولة التلاوة المصرية ومدارسها، الأول اتجاه المزج بين التمكن النغمي والتصوير الأدائي للمعنى ويمثله الشيخ محمد رفعت، والثاني اتجاه التألق في الأداء المقامي والإبداع النغمي ويمثله الشيخ مصطفى إسماعيل، والثالث اتجاه الخشوع الخالص وحضور القلب في التلاوة ويمثله الشيخ محمد صديق المنشاوي.

ولما كانت العوامل المؤثرة في شخصية قارئ القرآن متعددة، فقد تعددت مدارس التلاوة المصرية تبعا لقوة ظهور أحد هذه العوامل في تلاوة القارئ، وأزعم أن هذه العوامل ترجع إلى خمسة أمور: **الصوت، والنغم، وتصوير المعنى، وضبط الأحكام، وحضور القلب.**

وهذه العوامل توجد في جميع القراء بدرجات متفاوتة، وقليل منهم

من يبلغ غايتها ويوفيها حقها، وهذا النوع عزيز جدا في دولة التلاوة المصرية، ويتصدره بلا منازع الشيخ محمد رفعت، ثم يتوزع القراء من بعده على اتجاهات أو مدارس، يغلب على كل واحدة منها التميز في أحد هذه العوامل أو أكثر.

فإذا نحن نسبنا قارئا مثل الشيخ عبد الباسط عبد الصمد إلى مدرسة الأداء الصوتي الجميل فنحن لا ننفي عنه ضبط أحكامه ولا سلامة نغمه ولا تصويره للمعاني ولا حضوره القلبي، ولكننا فقط ننسبه إلى ما برز فيه وفاق أقرانه من القراء.

وكذلك إذا نسبنا قارئا مثل الشيخ محمود خليل الحصري إلى مدرسة الأداء المحكم فنحن لا ننكر امتلاكه لمهارات القراءة الأخرى، لكننا نركز في تقسيمنا لمدارس التلاوة المصرية على ما برز فيه كل قارئ وعلى خصيصة التميز التي تجلت في طريقة تلاوته.

مدرسة الأداء الصوتي

لا شك أن حلاوة الصوت وعذوبته هي أول العوامل المؤهلة لدخول مجال تلاوة القرآن الكريم، وقد عرفت دولة التلاوة في مصر نمطا من القراء تميز بصوت عذب فريد مميز لا تخطئه الأذن ولا تمل من الاستماع إليه، ولم يكن هؤلاء القراء بحاجة إلى الاتكاء على شيء آخر من عوامل التلاوة لإظهار براعتهم وتميزهم عن غيرهم من القراء، فحلاوة أصواتهم وعذوبتها في الآذان كانت كافية لأن يشغلوا مكانا بارزا في دولة التلاوة.

ولا شك أن صاحب الصوت الأشهر في دولة التلاوة المصرية وصاحب الانتشار الأوسع والشهرة الممتدة عبر أقطار العالم الإسلامي هو الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد، فالمسلمون الأعاجم في جنوب أفريقيا وشرق آسيا وأنحاء أوربا وأمريكا إذا سمعوا الشيخ عبد الباسط عرفوه باسمه وأقبلوا عليه، فقد كان بحق خير سفير للقرآن الكريم ولدولة التلاوة المصرية إلى جميع أنحاء العالم، بما تميز به من حلاوة في الصوت وطول في النفس وضبط في الأحكام وإخلاص في التلاوة، فاستحق بجدارة أن يكون أشهر قراء دولة التلاوة، وأن لا تزال شهرته متصدرة

وفائقة على غيره من القراء على كثرة من نبغ في تلاوة القرآن واشتهر في مصر وفي أنحاء العالم الإسلامي، ومع ذلك لا يزال الشيخ عبد الباسط قادرا على مزاحمتهم والتصدر عليهم.

هذا وقد حظيت دولة التلاوة المصرية بعديد من الأصوات المميزة التي يندر أن تتكرر، وشكلوا بأصواتهم العذبة ركنا مهما من أركان هذه الدولة الشامخة، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ أبو العينين شعيشع الملقب بكروان القرآن، ومن أنصت إلى الطبقات الصوتية التي كان يتفرد بها الشيخ الجليل لا يستغرب ألا يمتد عطاؤه في دولة التلاوة وأن يحجبه المرض عن التلاوة منذ سبعينيات القرن الماضي إلى وفاته مطلع القرن الحالي!

ومنهم الشيخ المتفرد عبد العظيم زاهر، وقد كان - إلى جانب خامة صوته الفريدة- صاحب طريقة مميزة في التلاوة لم يقلد فيها أحدا ولم يقلده أحد ، ويمكننا أن نتعرف على قمة عطائه في التلاوة بوضوح في تسجيلاته خلال فترة الخمسينيات، وهي تكشف عن طاقات صوتية وأدائية باهرة.

ومنهم ثلاثة من القراء امتحنهم الله بفقد البصر وعوضهم بنور البصيرة، ورزقهم أصوات عذبة متفردة، وهم الشيوخ: عبد العزيز علي فرج، ومحمد عبد العزيز حصان، ومحمود محمد رمضان، أما الشيخ عبد العزيز علي فرج

فصوته أشبه بصوت (الكمان)، وتكاد تلاواته أن تكون (سيمفونيات) رائعة دون أن يتكئ على جوانب الأداء الموسيقي والمقامات، فقد كان مجرد صوته المنبعث من حنجرته الذهبية كافيا لصنع نغم موسيقي عذب. وأما الشيخ حصان فقد جمع إلى حلاوة صوته قدرته باهرة على تصوير المعاني وسنتحدث عنه لاحقا في هذا الجانب، وأما الشيخ محمود محمد رمضان فقد تمتع بجواب صوتي عالي الطبقة يتحرك فيه بكل أريحية واقتدار.

ولا ننسى في هذا المقام أن نشير إلى الشيوخ الأجلاء هاشم هيبة، محمد بدر حسين، فرج الله الشاذلي، وخاتمة هؤلاء بجدارة هو الشيخ محمد محمود الطبلاوي، الذي كان آخر أصحاب الأصوات المميزة في دولة التلاوة، وكان صوته المميز بوابة شهرته الواسعة وذيوعه الكبير.

مدرسة الأداء النغمي

ورد الحث على (التغني بالقرآن) في السنة النبوية، وفهم منه العلماء استحباب تحسين الصوت وتزيينه في تلاوة القرآن الكريم، وانطلاقا من هذا الأصل فقد شغل الأداء النغمي أو الموسيقي ركنا بارزا في دولة التلاوة المصرية، ونبغ فيه أعلام من القراء كان لهم تمكن تام من المهارات التي تتيح للقارئ أن يطوع مقامات الموسيقى لخدمة التلاوة، دون أن تطغى على أحكام التلاوة وضوابطها.

وإذا ذكر الأداء الموسيقي المطرب والبراعة في الانتقال بين المقامات والتفرد في القفلات فإن الشيخ مصطفى إسماعيل يأتي في صدارة القراء الذين يمثلون هذه المدرسة الأدائية في دولة التلاوة، وقد تميز الشيخ مصطفى إسماعيل بموهبة فريدة أتاحت له الوصول إلى قدرات موسيقية عالية في مجال التلاوة دون أن يكون من المتخصصين في دراسة النغم والمقامات، وتكمن عبقريته في أدائه الموسيقي المطرب الذي هو في الوقت نفسه نتاج ارتجال فطري غير متكلف، فنحن نعلم أن الموسيقيين إذا أرادوا أن يمثلوا نصا من النصوص بلغة الموسيقي ويسكبوه في لحن منظم

أعلموا مواهبهم واجتهدوا في التلحين في محاولات متكررة للوصول في النهاية إلى اللحن المناسب، ولكن براعة الشيخ مصطفى إسماعيل وموهبته الفريدة كان كفيلة بإبداع جمل موسيقية وتنويعات نغمية مبهرة في إبداع ارتجالي لم يسبقه إعداد ولا تمهيد.

كانت طريقة الشيخ مصطفى إسماعيل مبهرة وأخاذة إلى الحد الذي أكسبها شعبية واسعة على مستوى (السميعة)، وعلى مستوى القراء أيضا، فمن عباءتها خرج الكثير من القراء الذين قلدوها وأتقنوها، وارتضى الناس منهم هذا التقليد وتعلقوا به كما تعلقوا بأصله، فالشيوخ: راغب مصطفى غلوش، أحمد نعينع، فتحي المليجي، حمدي الزامل، محمد السيد ضيف، عبد العزيز حربي، وغيرهم هم امتداد لمدرسة الشيخ مصطفى إسماعيل، وهي مدرسة الأداء النغمي الجميل الذي يجعل من تلاوة القرآن (احتفالية) يلتف حولها المستمعون وينفعلون بها، ولذلك لم يكن من المستغرب أن يكون قمة إبداع الشيخ مصطفى إسماعيل في تلاواته الخارجية وسط جمهوره الأثير الذي كان يعطيه من الدعم والتشجيع مثل ما كان يعطيهم من الإبداع والجمال.

مدرسة الأداء المعنوي

عرفت دولة التلاوة المصرية نمطا عزيزا من القراء صدروا في تلاوتهم عن فهم عميق بمعاني القرآن الكريم وقدرة عجيبة على تطويع الإمكانيات الصوتية والنغمية التي تمتعوا بها لتصوير المعنى وتفسيره للمستمعين من خلال طبقات الصوت ونبراته ومقامات النغم وتوظيف علم الوقف والابتداء، كل ذلك في (صنعة) محكمة وأداء سلس يجمع بين طرفي معادلة صعبة، فكانت تلاوتهم سهلة في وصولها إلى المستمع، صعبة في محاكاتها أو الإتيان بمثلها.

وعلى رأس هؤلاء القراء شيخ دولة التلاوة القارئ الكبير محمد رفعت، وقد اجتمع في تلاوته جميع عوامل التلاوة القرآنية بأوفى ما تكون، فهو صاحب صوت عجيب لا نظير له، وصاحب نغم متمكن ومقامات مطربة، وصاحب ضبط وتحقيق في أحكام التلاوة، وصاحب حضور وخشوع عظيم في تلاوة كلام الله، وهو فوق ذلك كله أستاذ مدرسة المعنى في دولة التلاوة المصرية، فكانت تلاواته تفسيرا لكتاب الله وتصويرا لمعاني آياته.

والقراء الذين ساروا على مدرسة الشيخ رفعت في تصوير المعاني قليلون، وأبرزهم:

١-الشيخ محمد سلامة: يشار إليه بأنه ثاني قارئ بعد الشيخ رفعت يربط النغمة بالمعنى، وبرغم مكانته الكبيرة في دولة التلاوة فإنه لم ينل حظا من الشهرة بسبب امتناعه من القراءة في الإذاعة المصرية وقت إنشائها، ولم يعدل عن هذا الأمر إلا في أواخر الأربعينيات.

٢-الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي: وهو صاحب صوت جهوري ضخم، إذا صافح أذن المستمع لأول مرة ربما استبعد أن يكون صاحبه من أعلام دولة التلاوة ومشاهير القراء، ولكنه استطاع ببراعة وعبقرية أن يوظف صوته لتصوير معاني القرآن أحسن توظيف، والمنصت إلى تلاواته يشاركه انفعاله بمعاني القرآن وإحساسه بها.

٣-الشيخ أبو العينين شعيشع: وقد سبق أن ذكرناه تفرده في مجال الصوت، ونذكره هنا أيضا لتميزه الشديد في مجال تصوير المعاني، وقدرته الباهرة على نقل المستمع إلى فضاء الآيات والعيش في ظلالها.

٤-الشيخ طه الفشني: وبرغم براعة الشيخ الفشني في الأداء الموسيقي المطرب بحكم شهرته الواسعة في مجال الإنشاد الديني، فإن المنصت لتلاواته القرآنية يقف على فهمه الواعي بمعاني الآيات وتوظيفه لطريقته

المتميزة في الأداء لخدمة المعنى القرآني وتقريبه للمستمعين. ويجدر بالذكر أن الشيخ طه الفشني صاحب طريقة مبتكرة في تلاوة القرآن الكريم لم يقلده فيها أحد، وهو صاحب أداء جميل ومدرسة متفردة.

٥-الشيخ محمد عبد العزيز حصان: ويعد خاتمة القراء في دولة التلاوة الذين كان لهم قدرة على تصوير المعنى وتقريبه للمستمعين، وقد تميز في باب الوقف والابتداء وأحسن توظيفه لتصوير المعاني حتى وصف بأنه (أستاذ الوقف والابتداء والتلوين النغمي).

مدرسة الأداء المحكم

تميزت دولة التلاوة المصرية بالضبط والإتقان لأحكام تلاوة القرآن الكريم، حتى إن تلاوات القراء المصريين المجودة والمرتلة تعد اليوم من المعينات لطلاب علم التجويد على استقامة نطقهم وسلامة مخارجهم لما عرفوا به من إعطاء الحروف وصفاتها حقها ومستحقها.

وإذا كانت مراعاة أحكام التلاوة هي صفة عامة في جميع قراء مصر، فإنها خصيصة بارزة في أداء الشيخ الجليل محمود خليل الحصري، الذي كان عالما قبل أن يكون قارئا، وقد ارتقى في المناصب العلمية -إلى جانب نبوغه وشهرته في دولة التلاوة- حتى تولى مشيخة المقارئ المصرية.

كان الشيخ الحصري رحمه الله يمتلك الأدوات الصوتية والأدائية التي تمكنه لأن يفوق كثيرًا من أقرانه في دولة التلاوة المصرية، ولكنه -كما صرح بذلك- لم يشأ أن يجعل القرآن تابعا للنغم، ومن أراد مصداق ذلك فليستمع إلى تسجيلات الشيخ رحمه الله في طليعة شبابه في فترة الخمسينات، وبخاصة في فقرات الختمة المجودة المشتركة ليتعرف على إمكانياته الصوتية الصافية الرائقة المحكمة.

وقد تميز الشيخ رحمه الله عن جميع قراء مصر بخصائص لم تعرف عن أحد غيره، فقد كان شديد التحري لآداب تلاوة القرآن الكريم، وقد دفعه ذلك للإنكار على قراء جيله وغيرهم ما يأتون به في تلاواتهم من الجمع بين القراءات مثلا أو التنقل بين آيات السورة أو السور المتعددة، وقد سجل ذلك في كتابه اللطيف الحجم العظيم النفع (مع القرآن الكريم).

وما أنكره الشيخ وإن كان يدخل ضمن المسائل الخلافية بين مشايخ القراءة، لكنه يدلك على مبلغ تحري الشيخ وتورعه في مقام التلاوة عن أن يبتغى بها غير الله، فإن التنقل بين القراءات ربما اتخذ منه كثير من القراءة سبيلا لجذب المستمعين أو إظهار التعالم والتنافس بينهم، دون أن يكون من وراء ذلك فائدة لتوضيح معاني الآيات أو لتدبرها.

ومن أراد المزيد من الشواهد على هذه الخصيصة الفريدة للشيخ الحصري فليستمع إلى ترتيله المبارك للقرآن الكريم -أول مصحف مرتل يتم تسجيله- وليقف عند ترتيل الشيخ لقوله تعالى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين)، وليتساءل لم خفض الشيخ صوته حتى أخل بمقتضيات الأداء فبدا (نشازًا) كما يقول أهل الصنعة؟

وليستمع إلى تلاوته المجودة الخالدة المسجلة بالروضة الشريفة على صاحبها أتم صلاة وتسليم، وليتساءل لم ظل الشيخ طوال التلاوة على طبقة القرار لم يبرحها على خلاف عادته في التلاوة من البداية بالقرار ثم الانتقال إلى الجواب كما هو متعارف عليه في الأداء الطبيعي للقراء؟

لقد كان حرصه على أحكام القراءة وتأدبه بآداب التلاوة يفوق اهتمامه بالجانب النغمي، فاستحق بذلك أن يكون شيخ مدرسة الأداء المحكم في دولة التلاوة المصرية.

مدرسة الأداء الخاشع

ونأتي إلى السمة الغالبة والطابع العام لدولة التلاوة المصرية، ونقف عند العامل الأخير من العوامل المؤثرة في شخصية قارئ القرآن الكريم وهو عامل الخشوع وحضور القلب وظهور أثر الإخلاص في التلاوة.

ولا يكاد يخلو أداء قارئ في دولة التلاوة من هذه السمة التي هي زبدة آداب تلاوة القرآن الكريم، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا)،وفي الأثر أيضا (إنَّ هذا القرآنَ نزلَ بحُزْنٍ فإذا قرأتموهُ فابكوا فإن لم تبكوا فتباكَوا).

وقد ظهرت هذه السمة جلية في قراء مصر، ويكفي أن تنصت إلى تلاوات القراء الكبار: محمد رفعت، أبو العينين شعيشع، محمود علي البنا، منصور الشامي الدمنهوري، عبد الرحمن الدروي، أحمد سليمان السعدني، وغيرهم لتقف على مبلغ الإخلاص والخشوع وحضور القلب إلى غير ذلك من أمارات الانفعال القلبي في تلاواتهم.

فإن أردت الوقوف على ذروة هذه السمة وغايتها فإنك تجد بغيتك في

الشيخ محمد صديق المنشاوي، ذلك العلم الكبير في دولة التلاوة المصرية، والذي سعت إليه الإذاعة وحرصت على انضمامه إليها دون طلب منه، والذي كان صوته وأداؤه عنوانا للخشوع وحضور القلب.

فتلاواته منذ استعاذته إلى تصديقه تفيض إخلاصا وخشية لله عز وجل، وهو قادر على أن يحملك إلى فضاء القرآن السامي ومعينه العذب دون أن يجهد نفسه في اقتناص نغمة أو تتبع مقام، ولا يختلف حضور قلبه وإخلاصه في تلاواته الخارجية عن تلاواته المسجلة بالإذاعة، فكلاهما في ذروة الخشية وغاية الإخلاص.

وقد ورث المنشاوي أصالة مدرسة قرآنية عريقة في دولة التلاوة المصرية، وهي المدرسة المنشاوية التي لا يمثلها الشيخ محمد صديق المنشاوي وحده، بل هي امتداد لوالده الشيخ الكبير صديق المنشاوي، وعمه الشيخ أحمد ثابت، ولم يتوقف عطاء المنشاوية عند الشيخ محمد صديق، فقد استمر من بعده متمثلا في شقيقه الأصغر الشيخ محمود صديق المنشاوي.

وقد جمع المنشاوي بين حلاوة الصوت وضبط الأحكام وخشوع القلب، فكان تلاوته محل استحسان كثير من المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، وبرغم قصر عطائه في دولة التلاوة -إذ توفي وهو دون

الخمسين من عمره- فإن بركة إخلاصه لكتاب الله حفظت له مكانة كبيرة في دولة التلاوة، فهو بحق أحد أبرز أعلامها الكبار وصاحب بصمة واضحة في مسيرتها الشامخة.

الإذاعة ودولة التلاوة

قبل افتتاح الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ كانت شهرة القراء محصورة في نطاق محلي ينحصر في الإقليم أو النطاق الذي يعيش فيه القارئ، وبرغم اعتماد الإذاعة في بداية انطلاقها على قراء القاهرة المشهورين كالشيخ محمد رفعت والشيخ علي محمود، فإنها فتحت أبوابها لقراء مصر من جميع أنحاء المحافظات، فجاء إليها القراء من أطراف القرى في الدلتا والصعيد، ووفرت لهم الإذاعة شهرة واسعة لم تكن لتحقق لهم لو ظلوا في محافظاتهم.

وليست الشهرة هي السمة الوحيدة التي تميز علاقة الإذاعة بدولة التلاوة المصرية، فإلى جانب ما أعطته الإذاعة لأعلام القراء من ذيوع وانتشار، فقد كانت إدارتها حريصة كل الحرص على تحري الدقة في اختيار القراء الذين تتعاقد معهم وتعتمدهم للتلاوة فيها، وكثيرا ما نسمع في سير القراء عن مبلغ الصعوبة التي كان يوصف بها اختبار القراء ومدى الحيادية التي كان يتمتع بها أعضاء لجنة الاختبار، بل كثيرا ما كان يعجز بعض كبار القراء أو المبتهلين عن اجتياز هذا الاختبار لكونه

كان يجمع بين جانبي العلم والفن في تلاوة القرآن، فكان يقيس مدى إلمام القارئ بأحكام التجويد وضوابط التلاوة الشرعية، كما كان يختبر سلامة الصوت وطلاقة أدائه النغمي.

ونلحظ من ذلك مدى الارتباط الوثيق بين دولة التلاوة وبين الإذاعة، فقد كانت الإذاعة عاملا مهما من عوامل النهضة الكبيرة التي شهدتها دولة التلاوة في منتصف القرن العشرين، وذلك بفضل الدقة الشديدة في اختيار القراء الإذاعيين، مما انعكس إيجابا على مستوى الأداء في تلاواتهم وفتح باب التنافس المحمود بين القراء نحو مزيد من الإجادة والإبداع في فن التلاوة.

غير أن دولة التلاوة المصرية ليست قصرا على الإذاعة، فهناك قراء كبار لم يدركوا زمن الإذاعة كالشيخ أحمد ندا، وهناك قراء ورفضوا التلاوة فيها كالشيخ محمد سلامة، كما أن هناك قراء لم يسعدهم الحظ بالانضمام إلى الإذاعة، وأمثال هؤلاء لا ينبغي أن يسقطوا من الاعتبار أو يبخسوا حقهم في تاريخ دولة التلاوة.

التسجيلات الخارجية لكبار القراء

من أهم مظاهر دولة التلاوة المصرية العظيمة تلاوات المحافل الخارجية سواء في المساجد أم غيرها، فقد دأب كبار القراء على تلاوة القرآن في المساجد المصرية وفي أنحاء العالم الإسلامي أمام جمهور من المستمعين، وهذه التلاوة الجماهيرية هي الأصل في تلاوة القرآن الكريم، وذلك قبل انتشار آلات التسجيل والإذاعات والمحطات التلفزيونية والفضائية، وبفضل هذه الوسائل الحديثة أصبحت آيات القرآن مذاعة ليل نهار في جميع بيوت المسلمين وطرقاتهم وأسواقهم، ولكن هذه الوسائل حجبت التواصل المباشر بين القارئ والمستمع، وهو أمر له نصيب من بركات القرآن وحضور الملائكة في مجالسه.

وفي تلاوات المحافل لكبار القراء تجلت الطاقات الإبداعية والفنون الأدائية والإمكانيات الصوتية لهؤلاء القراء العظام، وأذكر في ذلك كلمة الفنان محمد عبد الوهاب التي وصف فيها قارئ القرآن بالشجاعة الكبيرة لقدرته على مواجهة الجمهور منفردا بدون الاستعانة بفرقة موسيقية (يختبئ) في ثنايا أوتارها وموسيقاها، وهذا الوصف صادق تماما على

تلاوات المحافل، لا لمجرد قدرة القارئ على التفاعل مع الجمهور واستمالته، ولكن لأن كثيرا من هذه التلاوات اتخذ طابعا احتفاليا يستعرض فيه القارئ قدراته الأدائية وينشغل مستمعوه -ضمن ما ينشغلون- بتتبع هذا العرض الصوتي المحكم، فضلا عن استماعهم لآيات الذكر الحكيم وتلقيهم لمعانيها.

ومن الإنصاف أن نقول إن كثيرا من هذه التلاوات الخارجية كان حظ المعنى القرآني وتدبره من القارئ والجمهور أقل من حظ الأداء الصوتي ومراعاته من القارئ والانشغال به من الجمهور، ولعل مولانا الشيخ مصطفى إسماعيل هو أوضح مثال على ذلك، فإنه بما عرف عنه من التمكن الصوتي والمهارات الأدائية في الانتقال بين المقامات والتصاعد بين الطبقات والتحكم في القفلات وما إلى ذلك من وجوه الأداء، قد فرض نفسه على ساحة التلاوة المصرية وتسابق القراء في الاحتذاء به والنسج على منواله، وانشغل جمهور المستمعين بمثل هذه القدرات الصوتية في التلاوة والأداء عن تدبر المعنى القرآني والإنصات إلى رسائله الظاهرة والخفية، حتى غدا من المعالم الشهيرة والبارزة في مدارس التلاوة المصرية لكبار القراء أن تتعالى صيحات المعجبين من الجمهور مع تصاعد أداء القارئ ووصوله إلى ذروة الاستعراض الصوتي.

وكان من جراء ذلك أن يتصارخ بعض (السميعة) بعبارات لا علاقة لها على الإطلاق بمجالس القرآن، فهذا صائح بلغت به النشوة مبلغها في إحدى محافل الشيخ مصطفى إسماعيل إلى حد أن يسبه بأبيه!! وآخر يعقب على قوله تعالى (يوم نطوي السماء كطي السجل) بقوله: (يا حلاوة!!) وثالث ورابع وخامس تتعالى أصواتهم حتى في وقت تلاوة القارئ للآية إلى الحد الذي دفع بالشيخ مصطفى إسماعيل في بعض المحافل إلى قطع التلاوة وتوجيه الكلام إلى الجمهور بدعوته إلى الإنصات بعبارته البسيطة المعهودة: (بس يا جدع انت وهو، انتو فاكرين نفسكو في وكالة البلح؟؟(

ولا شك أن الجمهور يتحمل مسؤولية مثل هذه السلوكيات التي ربما كانت على غير قصد منه أو نتيجة لانفعال وقتي بأداء القارئ، ولكن القراء أيضا يشاركون جمهورهم فيها بما انساقوا إليه من الانشغال بالأداء عن المعنى، وتغليب الصنعة على الحضور والتدبر، وآية ذلك منهم شواهد عديدة لا تخطئها أذن المتتبع لتلاوات المحافل.

فأولها أن الآيات التي كانوا يقرأونها في المحافل كانت محل اشتراك وتكرار بينهم، بل حتى عند القارئ الواحد نفسه، وإذا نظرنا إلى فهرس سريع لتلاوات المحافل لأي قارئ فإننا نلاحظ سريعا تكرار تلاوات سور

مثل يوسف والأنبياء والنجم والقمر والرحمن، مع ختم التلاوة بقصار السور، وهذا التشابه والتكرار مظهر لاستعراض القدرات الأدائية والرغبة في التجويد والاستزادة سواء بين القراء بعضهم وبعض أو بين تلاوات القارئ الواحد.

وثانيها أن هذه التلاوات لا تكاد تخلو من القراءات القرآنية المختلفة، وخروج القراء عن الرواية المعتادة قد يكون لفائدة في المعنى كالذي نجده في تلاوات الشيخ محمد رفعت على سبيل المثال، إذ كل قراءة لها وجه من المعنى، وتكرار القارئ للآية بقراءة أخرى تكثير للفائدة وعرض لمعنى جديد، ولكن في تلاوات المحافل فالغالب أن تكون القراءات محلا لاستعراض أعلمية القارئ بها أو مظهرا جديدا من مظاهر التوظيف الأدائي للتلاوة، وبخاصة إذا وفرت له بعض الروايات -كورش مثلا- مجالا رحبا لاستعراض صوته وأدائه.

وثالثها -وليست آخرها- أن هناك علاقة مطردة بين تجويد القارئ في أدائه وبلوغه فيه حد الذروة، وبين تفاعل الجمهور معه، فكلما كانت تفاعل الجمهور كبيرا وقويا تصاعد أداء الشيخ وبالغ في تجويد صنعته، إلى الحد الذي يكرر معه آية بعينها أو مجموعة من الآيات بناء على طلب (السميعة)،

وفي كل مرة يظهر وجها من وجوه الأداء أو مقاما من المقامات الموسيقية فيزدادون به طربا ونشوة.

وأقول تتمة للإنصاف إن تلاوات المحافل على هذا النحو كانت جزءا من سياق عصرها، وفيها مع كل ما ذكرت كثير من الوقفات التدبرية الباهرة والتي تفتح لمستمعها أبوابا عظيمة من الفهم لكتاب الله، وأنتهز هذه الفرصة لألفت الانتباه إلى التلاوات المسجلة باستديو الإذاعة فقد نالت كثيرا من الظلم والإهمال مع ما فيها من النفحات والتجليات القرآنية، فضلا عن الطاقات الصوتية والأدائية لكبار القراء، وهي موضوع الحديث القادم.

تسجيلات استوديو الإذاعة

إذا كان أداء قراء القرآن في المحافل الخارجية أكثر عناية بالجانب النغمي وبإظهار المهارات الصوتية في الانتقالات والقفلات، فإنه أداءهم في استوديو الإذاعة أكثر عناية بالجانب المعنوي وبضبط أحكام التلاوة وباستحضار الخشية وحضور القلب في رحاب القرآن الكريم.

ولذلك لم يكن من المستغرب أن يميل قراء الاتجاه الأول إلى تفضيل التلاوات الخارجية لكونها المجال الأرحب لاستعراض طاقاتهم الصوتية والنغمية في تلاوة القرآن، حتى إن الشيخ مصطفى إسماعيل قال في بعض أحاديثه إنه كان يجد صعوبة في تسجيل التلاوات الإذاعية لأنه كان يحتاج إلى مساحة من الوقت قبل أن ينطلق صوته في التلاوة، وهذا ما لا توفره له نصف الساعة التي يقرؤها في الإذاعة.

وفي المقابل نجد كثيرا من قراء دولة التلاوة المصرية يبدعون في تسجيلات استوديو الإذاعة ويستطيعون في أقل من نصف ساعة أن يظهروا طاقاتهم الصوتية وإمكانياتهم الأدائية في إبداع مبهر، على نحو ما نجد مثلا لدى قراء الختمة المجودة المشتركة التي لا تزيد فقراتها عن ربع

ساعة، وفي خلال هذه المدة القصيرة توجد أروع تلاوات استوديو الإذاعة لكبار القراء وعلى رأسهم الشيخ أبو العينين شعيشع والشيخ كامل يوسف البهتيمي والشيخ طه الفشني والشيخ محمود علي البنا والشيخ منصور الشامي الدمنهوري وغيرهم.

ومن ينصت إلى تلاوات القراء في استوديوهات الإذاعة يقف على عدة ملاحظات:

١-أن هذه التلاوات تعرض صوت القارئ الحقيقي على طبيعته بدون زخرفة أو صنعة نغمية أو احتفال جماهيري أو غير ذلك من المؤثرات، وهذا ما يتضح بالمقارنة بين صوت القارئ الواحد في الاستوديو والمحافل، ونضرب المثل بالشيخ المنشاوي، فحلاوة صوته العذب الشجي في تسجيلاته الإذاعية تفوق تسجيلاته الخارجية التي كان يميل في بعضها إلى مجاراة تقاليد المحافل من استعراض القراءات والتكرار الذي مرده الصنعة النغمية.

٢-أن القارئ في استوديو الإذاعة يكون أكثر خشوعا واستحضارا لمعاني الآيات وأكثر انفعالا بها، مما ينعكس على تلاوته لها وعلى إحساس المستمعين له، ومثال ذلك تلاوات الشيخ عبد الباسط الإذاعية التي تفوق تلاواته في المحافل خشوعا وسكينة، وإن كانت تلاواته في المحافل

تفوقها في النواحي النغمية.

٣-أن القارئ في استوديو الإذاعة يكون أكثر ضبطا لأحكام التلاوة وأكثر مراعاة لآدابها، أما في تلاوات المحافل فقد يتجاوز في بعض الأحكام أو قد يقع في بعض الهنات في صفات الحروف أو المدود أو الغنات، وهذا ما نلاحظه في (القفلات) أو وقفات القراء في المحافل، إذ قد تقتضي منه القفلة إطالة الصوت في موضع لا تسمح قواعد التجويد بإطالته، كما نجد مثلا لدى الشيخ فرج الله الشاذلي في تلاوته الشهيرة (ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي)، ونلاحظ في وقفته على (وحي يوحى) إطالة في مقدار الغنة والمد الطبيعي بدرجة كبيرة تخالف المقدار المعروف في قواعد التجويد.

وبرغم ذلك فهناك قراء جمعوا بين الحسنيين، وتساوت تلاواتهم الإذاعية مع تلاوات المحافل دون تمييز، فالشيخ البهتيمي مثلا في تلاواته الإذاعية يفيض خشوعا وسكينة، ويكاد إحساسه بمعاني الآيات وحضور قلبه في تلاوته ينطق بلسان مبين، وهو في تلاواته الخارجية على نفس الشاكلة.

وتحتفظ المكتبة الإذاعية بثروة ضخمة من التلاوات التي سجلها القراء باستديوهاتها، وهي ثروة حقيقية جديرة بالإكبار والتقدير، لأنها تقدم

دولة التلاوة المصرية بدون محسنات أو إضافات أو مؤثرات، والقارئ المتميز هو الذي يمتعك بتلاوته منفردا كما يبهرك بتلاوته وسط جمهوره، وليست قيمة التسجيلات الإذاعية بأقل من قيمة تلاوات المحافل، ففيها تتجلى عظمة قراء مصر أصحاب الأصوات الندية والأداء القرآني الخاشع.

المصاحف الكاملة

كان لدولة التلاوة المصرية السبق إلى تسجيل القرآن الكريم كاملا برواياته المشهورة لأول مرة في عالم الصوتيات، وقد تم ذلك بصورتين: الأولى جماعية باشتراك عدد من القراء، والثانية فردية بواسطة قارئ واحد.

ويجدر بالذكر أن الصورة الأولى كانت أسبق من الثانية برغم الشهرة الواسعة التي نسبت إلى الصورة الثانية حتى عنون لها الأستاذ لبيب السعيد بالجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم ويعني به المصحف المرتل الذي سجله الشيخ محمود خليل الحصري عام ١٩٦١، ولكن قبل هذا التاريخ بسنوات تقارب العشرة سجلت الإذاعة ختمة مجودة مشتركة، اشترك فيها عدد من كبار قراء الخمسينيات وهم الشيوخ: محمد الصيفي، أبو العينين شعيشع، كامل يوسف البهتيمي، طه الفشني، عبد الباسط عبد الصمد، أحمد سليمان السعدني، عبد الرحمن الدروي، محمود خليل الحصري، عبد العظيم زاهر، محمود علي البنا.

ومن الغريب أنه لا توجد أية معلومات تفصيلية عن ملابسات هذه الختمة وتسجيلها وإذاعتها، وقد عرفناها من إذاعة القرآن الكريم حيث كانت تذاع فقراتها -التي لا تتجاوز ربع الساعة- في الثانية بعد منتصف الليل بتقديم المرحوم الشيخ محمد الراوي، ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ تسجيلها، لكن ملاحظة أصوات القراء فيها يدل على أنها كانت في خمسينيات القرن الماضي، وبذلك يمكن القول إن هذه الختمة هي أول مصحف صوتي كامل، وأنها أسبق من المصحف المرتل.

وليست هذه هي الختمة المشتركة الوحيدة في الإذاعة المصرية، فقد تلتها الختمة المجودة المشتركة للأربعة الكبار التي سجلت في أواخر الستينيات باشتراك القراء محمود خليل الحصري، محمود علي البنا، عبد الباسط عبد الصمد، مصطفى إسماعيل، وقد كانت تذاع فقراتها يوميا عقب أذان العصر على إذاعة القرآن الكريم إلى عام ٢٠٠٧م.

كما احتفظت المكتبة الإذاعية بختمة مرتلة مشتركة للشيوخ: راغب مصطفى غلوش، شعبان عبد العزيز الصياد، محمد محمود الطبلاوي.

أما المصاحف الفردية المرتلة فقد كان المصحف المرتل الذي سجله الشيخ محمود خليل الحصري أول مصحف كامل ينفرد بتسجيله قارئ واحد، وقد أفاض الأستاذ لبيب السعيد في تفصيل ملابسات تسجيله في

كتابه (الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم)، وما يعنينا هنا أن نشير إلى أن تسجيل هذا المصحف كان ردا عمليا من الحكومة المصرية على ظهور طبعات محرفة من المصحف الشريف وتوزيعها في بعض البلاد الإسلامية غير الناطقة بالعربية، فكان فكرة تسجيل القرآن الكريم كاملا هي الرد الأمثل على محاولات التحريف، وكان هذا تشريفا كبيرا لدولة التلاوة المصرية لكونها نالت سبق تسجيل المصحف المرتل الذي روعيت فيه أحكام التجويد بأتم ما يكون، فلا عجب أن يصير مرجعا لإتقان تلاوة القرآن وفقا لأحكام التلاوة وضوابط الأداء.

وقد تلا المصحف المرتل للشيخ الحصري عدد من المصاحف المرتلة لكبار قراء مصر الذي أدركوا فترة الستينيات، كالشيخ البنا والشيخ عبد الباسط والشيخ المنشاوي والشيخ مصطفى إسماعيل، والشيخ محمود عبد الحكم، والشيخ أحمد الرزيقي.

وإلى جانب هؤلاء القراء الكبار سجل المصحف المرتل عدد من قراء السبعينيات أيضا كالشيوخ: الشحات أنور، محمود حسين منصور، علي حجاج السويسي، أحمد عامر، أحمد نعينيع، محمد الطبلاوي.

وفضلا عن المصاحف المرتلة فقد سجل بعض كبار القراء مصاحف مجودة كاملة وهي قليلة جدا بالمقارنة بعدد قراء مصر، وتكاد تنحصر في

مصاحف الخمسة الكبار، ومصحفي الطبلاوي ونعينع من قراء السبعينيات.

وقد كان تسجيل المصحف الكامل عملا غير هين، إذ كان يصحبه تدقيق وتصحيح بمعرفة لجنة مختصة من علماء التجويد والقراءات، حتى إن الشيخ الحصري عندما سجل المصحف المرتل -وهو شيخ المقارئ- كانت اللجنة تستوقفه ليأتي بالتلاوة على الوجه المطلوب، وهذا التثبت الدقيق في المصاحف الكاملة لقراء مصر أكسبها قيمة كبيرة بالمقارنة بغيرها من المصاحف التي انتشرت مؤخرا بصورة واسعة لاسيما في البلاد العربية، وساعد على انتشارها تطور آلات التسجيل ووسائل الإذاعة حتى صار من المألوف اليوم أن يكون لكل قارئ مصحف كامل، وكنا نأمل لو أدرك مشايخنا الكبار هذه الطفرة التكنولوجية، إذن لأصبح لدينا مصاحف كاملة بأصوات أعلام القراء الذين لن يجود الزمان بأمثالهم.

الإنشاد الديني

يشغل الإنشاد والتواشيح والابتهالات الدينية ركنا بارزا في دولة التلاوة المصرية، فالمقومات التي يتمتع بها قارئ القرآن تتيح له ممارسة فن الابتهال بمنتهى الطلاقة، وذلك بفضل جمال الصوت وعذوبته وبراعة الأداء وحسن النغم، ولذلك لم يكن مستغربا أن يبرع بعض كبار أعلام القراء في فن الابتهال والإنشاد الديني، حتى إن الشيخ محمد رفعت رحمه الله كان من البارعين في هذا الفن.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل في علاقة فن الإنشاد بفن التلاوة أن مسيرة أحدهما بدأت بعكس ما انتهت إليه مسيرة الآخر، ففي زمن الرعيل الأول لقراء القرآن الكريم كانت التلاوة تعتمد على الأداء المعنوي وتصوير معاني الآيات أكثر ما تعتمد على الأداء الموسيقي وبراعة النغم، في الوقت الذي كان فيه الابتهال الديني مسرحا رحبا لاستعراض الطاقات الموسيقية لكبار المنشدين، ونضرب المثل بالشيخين محمد رفعت ومحمد سلامة في التلاوة، والشيخين علي محمود وطه الفشني في فن الإنشاد، فقد كانت مدرسة الشيخ محمد رفعت في التلاوة توظف النغم

لخدمة المعنى، فكان همه الرئيسي في التلاوة هو تصوير المعاني والتعبير عنها بالصوت والنغم، وكانت مدرسة الشيخ على محمود في الإنشاد تقوم على المهارة الفائقة في استعراض المقامات الموسيقية وفنون النغم، حتى روي عنه أنه كان يؤذن الفجر كل يوم بمقام موسيقي لا يكرره إلى عام قادم.

ثم انتهى الحال بفني التلاوة والإنشاد إلى عكس ما بدأ به، فغلب على قراء القرآن العناية بالجانب النغمي وإمتاع المستمع من الناحية الصوتية وذلك بفضل الانتشار الكبير الذي حققته مدرسة الشيخ مصطفى إسماعيل في تلاوة القرآن الكريم، أما الإنشاد فاتجه إلى تصوير المعاني والإحساس بها واستحضار الخشوع في الابتهال والضراعة إلى الله في أداء الابتهالات، وقد تجلى هذا الأداء الخاشع في مدرسة الشيخين الكبيرين سيد النقشبندي ونصر الدين طوبار، وهو أظهر ما يكون في أداء الشيخ طوبار، لكون الشيخ النقشبندي كان ذا صوت عريض عالي الطبقة، فكان اتكاؤه على صوته إلى جانب إحساسه المفعم بمعاني الابتهالات وقدرته على تصوير معانيها ونقل إحساسه بها إلى المستمع.

أما الشيخ نصر الدين طوبار رحمه الله فقد استطاع بفضل صدقه وإخلاصه في أداء الابتهالات أن ينقل فن الابتهال الديني نقلة كبيرة من كونه فنا موسيقيا غلبت عليه الصنعة والمهارة الصوتية، إلى كونه فنا

روحانيا يسمو بمستمعه ويأخذه إلى عالم رحب من الخشوع والسكينة.

وعلى هذه الشاكلة أبدع الشيخ محمد عمران في فن الابتهال وتلاوة القرآن، وقدم أداء عالي الإحساس وافر الخشوع، وكانت تواشيحه في الفجر -هو والشيخ طوبار- مثالا يحتذى في صدق الإحساس وصدق الأداء وصدق الخشوع.

وبعد

.

فهل انتهت دولة التلاوة؟

يبدو أننا -بشهادة الواقع - لا نملك إلا أن نجيب على هذا السؤال بـ(نعم)، والأسف يملؤنا حسرة على هذا التاريخ العظيم الذي ذهب بذهاب رجاله، والواقع يشهد أننا منذ سبعينيات القرن الماضي ونحن نعيش على أطلال الماضي، فلم تشد دولة التلاوة في الثمانينيات وما تلاها أي إبداع جديد سوى بعض المحاولات الجيدة لتقليد القديم والسير على منواله، ومنذ بداية التسعينيات غلب قراء الحجاز والخليج على قراء الكنانة وانصرف الناس إلى مصاحفهم المرتلة وتلاوات الحرمين في قيام شهر رمضان.

كانت نهاية دولة التلاوة مرتبطة بعدة عوامل، من أهمها:

١- غياب الكتاتيب: فقد كانت هي المهد الأول لرجال دولة التلاوة، واستطاعت بإمكانياتها البسيطة أن تؤسس جيلا

قرآنيا فريدا من القراء والمبتهلين كانوا على درجة عالية من الحفظ وإتقان أحكام التلاوة.

٢- افتقاد الإبداع الجديد في طرق التلاوة: فقد غلب التقليد على القراء وتشابهت طرق أدائهم بعد أن كان لكل قارئ طريقة مميزة يستطيع المستمع أن يتعرف عليها على بعد عدة كيلومترات على حد تعبير الشيخ أبو العينين شعيشع رحمه الله، والغريب أن هذا الإبداع المتميز في خلق طرق متفردة للأداء لم يكن نتيجة لدراسة موسيقية وإنما كان بممارسة فطرية، وربما ابتدأ القارئ بتقليد من سبقه لكنه سرعان ما يستقل عنهم وينفرد بطريقته المميزة.

٣- ندرة الأصوات المتميزة: وهذه ظاهرة غريبة تستحق الدراسة، فأصوات القراء في مصر في مطالع القرن العشرين كانت على درجة عالية من الجمال والحسن والعذوبة والتميز، ووراء القراء المشهورين كان هناك مئات بل آلاف من الأصوات الندية التي لم تشتهر، فما الذي حدث لأصوات المصريين؟ وما الذي تغير في طبيعتهم فجعلهم يفتقدون هذا الثراء الكبير في حسن الصوت وجماله؟

لكل هذه العوامل وغيرها نتأسف على انتهاء دولة كانت من أعظم

الدول وأرفعها مقاما وأسماها منزلة، والأمل باق في استدراك ما فات وإحياء الأمجاد.

رحم الله مشايخنا الأعلام وأجزل لهم الأجر والإنعام، والحمد لله أولا وآخرا.